مدفع الإفطار

د عثمان قدري مكانسي

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ، ونعوذ بالله من كل ما يغضبه سبحانه وتعالى، ونصلي على المبعوث رحمة للبشرية سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، نسأل الله أن يجزيه عنا خير الجزاء ويشفعه بالمسلمين جميعاً

أما بعد ، فهذه قصص هادفة كتبتها عام خمسة وسبعين وتسع مئة وألف أغلبها –إن لم تكن جميعاً – وقعت في المعركة التي حدثت عام ثلاثة وسبعين وتسع مئة وألف حين كنت ملازماً في خدمة العلم. وهي حقيقية ، لم يدخل الخيال فيها ،

لعله فيها فائدة أدبية ودينية إضافة إلى المتعة في حبكة القصة، والله ارجو أن يجعلها في صحائف أعمالي، إن سميع مجيب.

د: عثمان قدري مكانسي

مدفع الإفطار

سيذكر التاريخ أن عصابة مؤمنة بربها معتمدة عليه قد شاركت في حرب رمضان عام ثلاثة وتسعين وثلاث مئة وألف للهجرة ، بذلت إمكاناتها في سبيل الله ، وحققت بعض الانتصارات بتأييد منه – سبحانه – ومدد .

وإن أنس لا أنس اليوم الثاني من المعركة ..

قال سامر : شوّقتني يا سعيد لسماع قصة هذا اليوم على الرغم أن أجفاني راحت تثّاقل معلنة إنهاء يوم حافل بالتدريب المستمر ، وبدأت التثاؤبات تتغلب على فمي المرهق ، والفراش يشدني إليه كأن فيه سحراً لا يغالب .

قلت : أتريد بكلامك هذا حثّي على الحديث أو قذفي إلى سريري ؟.. قال : بعد أن غسل وجهه ، واستقام في جلسته أمام باب الخيمة ، ونظر إلى القمر المستدير المتسلق قبة السماء :

هات ما عندك الآن ، فأنا معك إلى أن يبزغ الفجر .

قلت : كنت صائماً يومئذٍ ، والوقت في الأصيل ، والشمس مصفرة .. والأرض والدنيا تميد تحتنا من القذائف التي تحيلها براكين لا تهدأ تصْلي الطرفين ناراً مستعرة ، والدبابات تمخر عباب المعركة ، تريد الوصول سريعاً إلى الشاطئ الآخر ، والمدافع المضادة للطائرات تحمي سماءنا ، وقوافل المؤونة والذخيرة تزحف إلى الأبطال الذين يندفعون إلى ساحات الشرف والكرامة .

كانت مهمتي الدفاع عن " تل الضهور "مركز قيادة الوحدة بأسلحتي المضادة للدرع ، أسكت مصادر النيران الارضية ، وأكيل لها الصاع صاعين .. وكأن العدوّ عرف ذلك فهو في غيظ وألم .

وجبل " الحَرَمون " ذلك الشيخ الوقور الذي يعصب رأسه بغلالة من الثلج حتى في أيام تموز صامد لا يأبه بما في المرصد اليهودي الذي استعاده جنودنا في الساعات الأولى من يوم أمس

نعم .. لقد استشاط العدوّ غضباً إذ خسر المرصد الذي كان عينيه اللتين يرصد بهما تحركاتنا ، فكان يرسل الكتيبة تلو الكتيبة لبسط سيطرته عليه ثانية ، فيبوء بالخزي والعار .

واليوم ... أرسل ستّاً من طائراته " الفانتوم " لقصف بواسلنا في الجبل .... ولهجت الألسنة بالدعاء ، وقلوبنا بالرجاء لإخواننا هناك . لا سيما أخانا أبا خالد " عدنان شيخوني " قائد فصيلة " الكوبرا " في المرصد المحرر نفسه – وهي صواريخ ثقنص الطائرات عن قرب —كان لولب الدفاع عن المرصد جواً .

صاح " عبد الله " عامل اللاسلكي فرحاً : سيدي... انظر باتجاه الشرق .. ونظرت فرأيت حمامتين بيضاوين تتجهان إلى جبل الشيخ من قرية " سعسع " التي تبعد عنه أكثر من خمسة عشر كيلو متراً تطيران جنباً إلى جنب وعلى خطين أبيضين متوازيين ، كأن كل واحدة منهما تحث الأخرى على الصبر والمجاهدة في قطع الفضاء إلى حيث تكشفان الغم عن المجاهدين .... مرت ثوانٍ معدودة ، ودخلت كل واحدة منهما وكرها حيث ضاقا بهما ، فانفجرا وصارا أثراً بعد عين ... " الله أكبر " ..

وصاح " عبد الله " سيدي .. صاروخان آخران نحو طائرتين أخريين ... لقد تمزقتا .. " الله أكبر " .. لم يبق سوى طائرتين .

نعم ياسامر ، لقد بقيت طاترتان ... ولكن صاروخاً صغيراً من يد أبي خالد انطلق بشوق ولهفة ليعانق إحداهما عناق المشوق المستهام .. وهصرها .. فذابت تحت وطأة حرارة اللقاء العنيف .

وبقيت اليتيمة ... وبكت قنابل صبتها بلا وعي .. وارتجف ملاّحاها هلعاً من مصير الأخريات.. وتمايلت الطائرة ، وكأنما عزّ عليها أن تعود وحدها ، فاصطدمت بصخرة ، وألقت بنفسها منتحرة في الوادي السحيق .

ولم يبق على موعد الإفطار سوى ثلث ساعة ...

كان " تل الضهور " الذي أرابض فيه منتهى طريق طويل قادم من الشرق ، يتفرع عنده إلى طريقين : إحداهما تتجه شمالاً إلى قرية " حضر " مركز الجيش المغربي الشقيق ، والأخرى غرباً إلى القنيطرة ، حيث طلائع جيشنا المتقدم .

ولمح طائر إسرائيليّ قافلة كبيرة من السيارات تتجه نحونا ، فعمد إلى ضربها في مفترق الطريقين ... فتصدّت له وسائل الدفاع الجويّ المكوّنة من رشاشات ذات عيار صغير جعلته يهرب مرتين إذ كانت الطلقات الكثيفة تصدر أصواتاً أخافته حين ارتطمت بكثرةٍ وسرعةٍ أسفل طائرته المصفح برقائق الفولاذ القوي دون أن تخترقه .... فحين اطمأنّ إلى أن رصاصات الـ /500 ملم لا تجدي مع طيارته فتيلاً عاد مصمماً أن يقضي على هذا الصيد الثمين ... فلما توقف على رأس المثلث مركزاً على هدفه حدث ما لم يكن بالحسبان ...

سنحت الفرصة لأحد رماة صواريخ "كوبرا " – على التل نفسه – فسدد إليه صاروخه ، ثم أرسله نحوها ، فدوّى انفجار هائل... ل ل ... وفتحتُ المذياع... فسمعت صوت المؤذن يشدو مترنماً بالنداء الخالد : ... " الله أكبر ... الله أكبر ...

رحلة صيد

كانت دباباتنا تناوش العدو وتلعب معها لعبة " الإغماءة "كما كنا نلعبها كثيراً ونحن صغار .والمدافع على أنواعها تتراشق ناراً تلظّى . وأصواتها تدوّي في الفضاء الرحب كما طبول تدق بإيقاعات منتظمة . فإذا تداخلت إيقاعاتها أسمعتك خليطاً لا وزن له ، إلا أن القافية كانت واحدة عند كل منها " دن " .

كنت قائداً لوحدةٍ مدفعية مضادة للدرع م/د / مهمتي – في اليوم الرابع لمعركة رمضان – الانتشار بأسلحتي على طول الخندق الإسرائيلي – الذي اقتحمه جيشنا في أول ساعات المعركة – لصد أي هجوم من العدو مضادٍّ .

كان كل شيء جاهزاً في اللحظات الأخيرة لليلة البارحة ، فما إن بزغ الفجر حتى كانت المدافع/ 106/ ملم المحمولة على عربات " اللاندروفر مموّهة ،وصواريخ المالوتكا – التي يسميها المواطنون : صواريخ الخيطان – موجهة نحو مواقع العدو . والجنود اتخذوا أماكن مستورة يرون العدو منها ولا يراهم .

والحقيقة أن المكان الذي اخترناه لتمركزنا كان جيداً تماماً ، فأمامنا صخرة عالية مشقوقة تسمح لنا بمراقبة الإسرائيليين ، وتمنع عنهم تحركاتنا الكثيرة . ووراءنا وادٍ توهم العدو أنّ قواتنا فيه فأصلاه ناراً كثيفة ، إلا أنه كان خالياً من كل شيء خلوّ فم ابن العشرين بعد المئة من أثر الأسنان الدارسة .

وحينما آذن الصبح بانبلاج أجلْت طرفي علّني ألقى مكاناً أشرف منه على ما حولي فأتخذه مكاناً لي ، فنادتني شجرة من شجرات المكان قائلة : عندي ما تبغيه ,علوٌّ ، وإخفاءٌ عن الأعين ، وصخرة مجوّفة فيها الأمان كله من سماجة أبناء العم الثقلاء .

فاروق ، شاكر ، عبد العزيز ، وياحسن : أجاهزون للرمي بصواريخكم الخضراء رسل السلام ، إن جاء الأمر بذلك ، ويا مرشد ، وأحمد ، وخالد ، وسليم ، كيف حال مدافعكم العزيزة ؟... رد الجميع : على خير ما يُرام .....هيا إليّ ... فانتظم العقد سريعاً ...

فاروق وشاكر من حمص ، التحقا بالجيش في يوم واحد ، فاستأنس كل منهما بالآخر ، فكنت لا تراهما إلا معاً . ..كان باستطاعة الأول أن يقضي جنديّته بعيداً عن المتاعب لأنه لا يكاد يرى بعينه اليسرى ، لكنه فضل مصاحبة زميله ، وخوض مصاعب الحياة بين السلاح وفي الخنادق على العمل الروتيني وراء إحدى الطاولات – ولا أدري أكان صادقاً في دعواه تلك أو لا ، أما شاكر فقد كان هادئاً بارد الأعصاب ، لا يتذمر من شيء أبداً ، مطيعاً للأوامر .. وامتاز كلاهما بحسن الخلق والمزاح وجمال التعليق ، ومجابهة الحياة بقليل من عدم المبالاة .

وعبد العزيز من الحسكة ، فيه تتجلّى أخلاق البداوة ، بحلوها ومرّها ،وجفائها وأريحيّتها ، فهو يوم ربيعيٌّ تتقلب أحواله بين إشراق وغيوم ، وأنسام وزوابع ، ... وحسنٌ يختلف عما يجب أن يكون عليه . إنه من جبل العرب الأشمّ الذي يمتاز أهله بالكرم والشجاعة وال ... إنه يفتقر إلى هذه الصفات كلها ، ولا سيّما الشجاعة ... أما الباقون فحديثو عهد بنا ، إلا أن أحمد على ما يبدو أفضلهم .

" بعد قليل تطلع الشمس ، وتتبلوَر الأشياء ، فلتكن عيونكم مفتحة ، ونفوسكم هادئة ، وإياكم وكثرة الحركة ...، وابحثوا عن الأهداف ، سنرى الماهر منكم يصطاد غزاله بأول سهم .. الفرق بين الحب والحرب يا عبد العزيز – وكان قد تزوج حديثاً – الراء لفظاً ، أما معنىً فسهم الحب يُخطئك بغضّ البصر ، أما هنا فافتح عينيك جيداً كي تنجوَ من سهام الحرب ..."

فاروق : أقسم أن قلب عبد العزيز يخفق بسرعة 300 ذبذبة / ثا .

حسن : بالله عليكم افتحوا آذانكم ، لا وقت للمزاح الآن .

شاكر : ألا ترونه يبتسم ؟ لقد طار بجناح الشوق إلى ...

حسن : سيّدي ألا تراهم؟ .

عبد العزيز : لا تضيّع علينا ياحسن اللحظات الثمينة بخوفك وهلعك .

وظهر التأفف على وجه حسن ، فضحك الجميع .. وابتسمت ، ثم قاطعتهم قائلاً:

إنكم صف ضباط ، وقادة جماعات ، وجنودكم يستمدون أملهم من حسن تصرفكم ، فلا داعي للخوف واليأس ، ولنكن شجعاناً ، ولنجابه عدوّنا بقوة ... ولنعلم قبل كل شيء أنه إذا جاء أجلنا فلن ينجينا احتراس ... وغيّرت دفّة الحديث : من يرمي أولاً إن ظهر هدف دسم ؟

أحمد : مدفعي سيردي الهدف بطلقة واحدة .

شاكر : ما تزال غِرّاً ، لم يطُلْ شعرك الحليق .

أحمد : أراهنك .

فاروق : مرتّبك كثير – ما شاء الله !!- بل حسنٌ يصيب الهدف مئة بالمئة .

يظهر الارتباك على وجه حسن : بل عبد العزيز أمهر مني بكثير ، ألا تتذكرون أنه يستأثر بجوائز الرمي ؟...

عبد العزيز : لا تنس أنني أصبحت مسؤولاً عن غيري (أبو عيال) حرام عليك .... قالها بلهجة المتسوّل ... فضحك الجميع .

فاروق : أما أنا .. فمن المفروض أن أكون من ذوي الخدمات الثابتة .. وإذا لم يظهر البطل العتيد فسأندفع عصباً عني لأقول دون و.. ج.. ل.. ولا .. خ..و..ف : الحقني يا شاكر .

وطفق الجميع يبتسمون ابتسامات قريبة إلى الضحك .. وهنا شمر شاكر عن ساعديه بحركة مصطنعة قائلاً : .. لم يبق في الميدان إلا حديدان .. أنا لها . أنا لها .. صحيح أنني لا أصيب الهدف في مشاريع الرمي ، لكن حين يجد الجِدُّ أكون ابن بجدتها وصاحبها الأوحد .

ربما تعتقد ياصاحبي الآن أن مثل هذا الحوار بما يتجلى فيه من مزاح وفكاهة يذهب باحترام القائد ... هذا صحيح ، ولكن إذا عرف الجنود أوان الجد والهزل ، فأعطَوا كلاً منهما حقه فإن الحياة تكون رائعة حقاً . وهذا ما كنا جميعاً نشعر به .

ورنّ جرس الهاتف : ....نعم ... نعم ... ماذا ؟.. ست دبابات معادية على " تل وردة " على شكل مثلثين ؟.. إنني أسمع صوت الجنود يخبرونني بوجودها ... نعم لقد رأيتها ... لقد رأيناها جميعاً ... سندمرها بإذن الله تعالى .. مع السلامة ..

- يا أحمد ...

- نعم سيّدي ...

- جهّز مدفعك .

- هو جاهز ، والقذيفة فيه ...

- انظر يا أحمد إلى التل على اليمين تر دبابة أخذت وضعها القتاليّ ، وتليها خمس دبابات ... هل رأيتهنّ جميعاً؟ .

- نعم سيدي ..

- ضع على المؤشر 2200 متر ، وأطلق رصاصة خطّاطة ، لا قذيفة .

يطلق أحمد الرصاصة الخطاطة ، وأنا أتابعها ، فتقصر عن الهدف .

- زد على المؤشر مئتي متر , وأطلق رصاصة .

نعم يا سيدي ، لقد أصبتها .

- أطلق القذيفة الآن ...." دن " ..

الجميع : الله أكبر ... لقد احترقت .

- يا أحمد ارم الدبابة الثانية بعناصر الأولى ، والله معك ..." دن " ..

فاروق : الحمد لله أننا لم نراهنه – أولاً – والحمد لله أنه أصابهما– ثانيا – .

أحمد : هل أرمي الثالثة يا سيدي .

: لا يا أحمد ، بارك الله فيك أيها المقدام ، يكفيك فخراً أنك دمّرتَ دبابتين في دقيقتين .

من يرمي الثالثة يا أبطال الصواريخ ؟.

شاكر : جاء دوري (ما فيها لعبة) ، الثالثة أبعدها لكنها تحت مرمى الصاروخ ، فهي لا تبعد ثلاثة آلاف متر .... أشهد ألاّ إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله .. وتعجب الجميع أن ينطق شاكر النصرانيُّ بالشهادة في مثل هذا الوقت ... لكنه نادى بملء صوته : أن أموت مسلماً فأدخل الجنة خير من موتي مشركاً .. فلا تتعجّبوا .. إني مسلم أحب الله ورسوله .

وضغط على زر الإطلاق ، فانطلق الصاروخ يسبح في الفضاء ، يتأرجح ذات اليمين وذات الشمال منطلقاً نحو الدبابة بسرعة مئة وعشرين متراً في الثانية .متبختراً كالعروس تُزف إلى عروسها ... ونادى الجميع شاكراً : ثبّتْ أعصابك يا بطل ، أيدك الله ، ومدّ في أجلك . وقبلك في عباده الصالحين ... ثم كتم الجميع أنفاسهم ... وبدأ الصاروخ ينطلق بخط مستقيم لا يحيد عنه ، ولا يريد أن يضيع هدراً ، بل ينبغي أن يرفع رأس صاحبه المسلم الجديد اعتزازاً... واصطدم بالدبابة ، فاحمرّت ، وتوهّجتْ ثم انفجرت ...

" سلمت يداك " " لا شُلّتْ يمينك " " أبوس روحك " "عظيم " .. وكنت تسمع كثيراً من هذه التعليقات .. وتنفس شاكر الصّعَداء .. ثم عاد منبطحاً ونادى : " الصاروخ الثاني والدبابة الرابعة ... " دن " .. وانطلق الصاروخ يحمل معه الموت الزؤام ، تتبعه دعواتنا وعيوننا ، وارتفع فوق الأرض ليبدأ بعد ذلك مساره الصحيح ، ولكن ... انبطح الجميع ، وتفجرت

أمامنا بثلاثين متراً قنبلة .. وعمّ المكانَ الغبارُ ، ولاذ الجميع بالصمت ، وبعد ثوانٍ انقشع الغبار ، وتلمّس الجميع أنفسهم .

هل من مصابٍ ؟.. وسمعت الجواب من كل صوب : لا ، والحمد لله .

يبدو أن الدبابة الرابعة رأت الصاروخ الأول منطلقاً إلى هدفه ، فراقبت نقطة انطلاقه .... وحين شاهدت الصاروخ الثاني يطير نحوها من النقطة نفسها سددت إليه ورمتنا ، فأخطأتنا ...

صاح الجميع آسفين : ضاع الصاروخ ...

ونفض شاكر الغبار عن نفسه ،وأرسل نظره في المنظار ، وشد عصا القيادة ، ثم صاح : الحمد لله ..كاد الصاروخ يصطدم بالأرض ، فرفعته ... لقد أعدته إلى مساره ... أنه يتجه نحو الهدف ....

الدبابة رأته مقبلاً يقصدها .. فانطلقت في الاتجاهات كلها تنشد الخلاص من مصيرها المرعب ... لكن الصاروخ كان لها بالمرصاد ...

ارتج المكان بتهليل الجنود وتكبيرهم ... لن تسألني السبب.... لأنك تأكدتَ كما تأكدنا أن الدبابة تناثرت أشلاء .

وهربت الباقيتان كبومتين ترتجفان في ليل بارد مطير ....

عيون لا تنام !

أمسك بسماعة الهاتف في عصبية ظاهرة ، وطلب النقيب عدنان :

- نعم يا سيدي العميد ، أنا النقيب عدنان ... ماذا جرى ؟
- لقد نفد صبري ،،، أتكلم؟ أم ما يزال ساكتاً ؟
- دقائق يا سيدي ، وينتهي كل شيء .
- لم نجد مثله عنيداً !
- بل كلهم يا سيدي متشابهون ،،، على كل حال .. استعملنا وسائل التعذيب كلها . ومنذ أشهر مضت حتى اغتصبنا من شفتيه ما نريد .
- أخبرتَني يا نقيب عدنان بما يريح قلبي ، ويثلج صدري .. لقد وبخوني كثيراً ، وأنّبوني طويلاً ، فما عدت أستطيع رفع رأسي أمامهم .ففي كل لحظة يتصل بي اللواء فلان ، والمسؤول علاّن ، يسألونني عما فعلناه مع هذا الذي يسمونه " مجاهداً " وإلى أيّ مدى وصلنا معه في التحقيق ، وهل انتزعنا منه الاعترافات ، فأُسوّف ، وأعتذر ، حتى بدأوا يسمعونني قارص الكلام .. أووووف .. لقد كرهت رنين الهاتف وتقريعات هؤلاء الذين لا يدرون عن مهمّتنا المتعبة إلاّ هل؟ وإلى متى ؟ ولماذا التهاون ؟ و.و
- يا سيدي كنْ مرتاحاً .. دقائق ، وآتيك ... لقد انتهى كل شيء .
- أنا بانتظارك يا عدنان ..

ويضع السيد العميد السماعة ... آه .. لقد أتعبَنا هذا المجرم ... من أي نوع من الجنّ هو ؟! وكيف يتحمّل كل هذه الإهانات مع التعذيب ليلاً ونهاراً ؟!! كأن جسمه قُدّ من فولاذ أو حديد .. لو كنت مكانه لقلت ما يريدون قبل أن تمتدّ يد أحدهم إليّ .. لا أتحمّل صفعة واحدةً .. إنهم يقولون : إن الإيمان بالله ، والعمل بما يرضيه يقوّى النفس ويشحذ العزائم .. وأنا مؤمن بالله .. إلا أنني – والحق يُقال – أرتعد كلما نظرتُ إليه ،

وأكاد أخرج من ثيابي إذا رنا إليّ بعينيه الصافيتين العميقتين ... وأشعر برهبة راعشة ... .. يُدَقّ الباب .

- ادخل .

ويدخل النقيب عدنان ..

- لقد أنهينا آخر إنجازاتنا يا سيدي ،نعم أنهيناها واستطعنا أن ننتزع منه كل ما يسيء إلى " المجاهدين " .. استعملنا معه بادئ ذي بدء اللطف والهدوء ، ومنّيناه بالحريّة ، فلم ينبس ببنت شفة ... أغريناه بمناصب كبيرة ، ومئات الألوف ..والملايين .. برصيد ضخم في البنوك الأوربية ، فلم تتحرك شفتاه .. وضعناه في الدولاب مرات و مرات – وكان الجلادون يتناوبون تعذيبه – فظل صامتاً لا تندّ عنه سوى آهات وتنهّدات خفيفة حسبناها أول الأمر استرحاماً .. لكن الغيظ أكل قلوبنا حين عرفنا أنه يقول " يا ألله " وكأن ربه سينقذه من بين أيدينا !!.. سببناه وزدنا له العذاب ألواناً فلم نفلح في تليينه ..سلطنا عليه الماء والكهرباء ، وأُغمي عليه .. اشرف على الهلاك فحملناه إلى المستشفى كي لا يموت قبل الاعتراف ،، ثم عدنا إلى ألوان أخرى من العذاب .. حصل هذا أكثر من مرة .. ثم بدأ يلين ..
- وهل اعترف بكل شيء ؟ .
- لا ياسيدي . إنه تحدّث بأمور عامّة نعرفها منذ زمن .وذكر بإيجاز بعض ما نفّذوه .
- ولكن يا نقيب عدنان ، لقد وعدنا الجمهور أننا سنقدم واحداً من قادة الإجرام ، ممن أساءوا للوطن وللمواطن ، وأنه سيميط اللثام عن جرائمهم ، وسيوضّح الأعمال الإجرامية بحق الأمة والقيادة الحكيمة للسيد الرئيس حامي البلد ، وقائد الأمة في ركب الحضارة إلى الأبد ...

- نعم يا سيدي .. نعم ... لقد كسرنا له ذراعه الايمن ورجله اليسرى ، وبدأنا نلويهما ، وأخذنا نقرض جسمه بمقاريض الحديد ، و.. حتى اعترف أنه من مسؤوليهم .
- وماذا قال عن جماعتهم ؟ هل وصفها بالخيانة والعمالة ؟ وأن أفعالها تدل على وحشية ما عرفتها القرون الخالية ؟ وأنها قتلت كثيراً من الشرفاء ، وخرّبت البلد؟
- لقد تعبنا معه كثيراً يا سيدي ، فهو صلب المراس .. تصور أننا كنا نصب عليه الماء المثلّج ، ونردفه بالماء المغلي ، واقتلعنا ثلاثة عشر من أظفار يديه ورجليه ، وضربناه في الأماكن الحسّاسة من جسمه ، فصبر طويلاً ، وأبى أن يقول ما نريد ..
- ولكن الرئيس – يا نقيب عدنان – الرئيس يريد لهذا المجرم أن يتحدّث في شاشة التلفاز أن جماعته مفككة ، وأن الثقة فيما بينهم معدومة ..بل هم متخاصمون يكيد بعضهم لبعض .. أفهمت ؟ يجب أن يؤكد أنهم شراذم .. وأن يدمغهم بالرجعية والعمالة للاستعمار .. وأن قادتهم يعملون لمصالحهم الشخصية .. هكذا يريد السيد الرئيس القائد .
- لا تتعجّلْ يا سيدي .. الأمر لا يتأتّى بهذه السهولة فأمثال هذا لا يرضخون فوراً كما يفعل غيرهم ، ولو رُضخت رؤوسهم بالحجارة ، وهشّمت عظامهم بالحديد ....
- ماذا تقول يا نقيب عدنان ؟! ألم تذكر أن الأمر انتهى؟!
- لم أكمل بعد حديثي يا سيدي .. ما قلتُه لك كان في بداية الأمر .. ثم إنك يا سيدي قاطعتني . ولو أنك ضبطت أعصابك لسمعتني أقول بعدها : إن التفنن في العذاب الذي قام به الخبراء الأجانب الذين استقدمناهم خصّيصاً للعذاب – وقد تعلمنا منهم كل شيء ثم فقناهم في أساليبهم – جعلنا نستخلص منه ما نشاء .. كنا نغتنم وعلى مدى خمسين يوماً فرص الانهيار النفسي والفكري . ونأمره تحت ضغط التعذيب الذي لا ينقطع أن يقول مانريد ، ثم جمعنا اللقطات المناسبة ليظهر أمام المشاهدين كأنه لقاء واحد .

- ولكن كيف تلافيتم وضعه الجسمي ؟.. أقصد تشويهات جسمه ، وكسر يده ورجله ، والكدمات في وجهه ، والبقع السوداء المنتشرة هنا وهناك؟
- لا تقلق يا سيدي .. فنحن نعجبك .. لقد ألبسناه ثوباً فضفاضاً يخفي معالم جسمه ، وطلينا وجهه بمساحيق التجميل ..

لقد دبّرنا الأمر ياسيدي .. وأرجو أن نكون أفلحنا في تلميع الصورة .. صحيح أننا تعبنا كثيراً في تحَيُّن الفرص لالتقاط المشاهد على فترات متقطعة على مدى خمسين يوماً ، وحذفنا بعضها واستعنا بأفضل المصورين ، وتفننا في الإخراج إلا أننا متأكدون أنها ستمر على المشاهد دون أن يلحظها . وان السيد الرئيس سيكافئنا على جهدنا القوميّ العظيم ! في تبيان " الوجه الناصع " لحكمه الميمون ، والقضاء على الحركات الرجعية التي تريد إعادتنا إلى الحياة في ظل التحجر والجمود ..

طب نفساً يا سيدي ، فنحن أهل ثقتك ورضاك .

والآن .. ما رأيك بليلة حمراء تنسينا ما بذلناه من جهد ومشقة مضنيين ..ياسيدي العميد...!

قطارٌ يتلوّى

قال الملازم حسان :إن قصتك مع الجني- يا أخي- محمد شائقة عجيبة . فاقت في جذب انتباهي إليك قصص ألف ليلة وليلة .... ضحكنا ... ونظرت إلى ساعتي ، كانت تشير إلى التاسعة والربع ليلاً ، عركت أذن المذياع لنسمع بعض الأخبار من إذاعة دمشق... وقدّم سمير كؤوس الشاي فارتشفناه .. وساد صمت بين الجميع .. يظهر أن كل واحد منا رحل مع ذكرياته .. وفجأة سمعنا صياحاً من بعيد .ثم رأينا جنديين يسرعان إلينا ، فلما وصل إلينا سابقهما قال:

- الحق ياسيدي " الرقيب عبده " .
- مابه ؟!

وكان الثاني قد وصل ، فألقى أمامنا حبلاً طويلاً قائلاً :

- لسعته هذه الحية ياسيدي .

نظرنا جميعاً إلى الحية وجلين ، منكمشين ، ثم تراخت الأجساد.

- يا حارس نادِ السائق المناوب ...مُرْه أن يجهز عربته حالاً ، وليذهب اثنان منكم مع المصاب إلى النقطة الطبية .. ثم تحوّلت إلى الجنديين :
- هل أجريتم له الإسعافات الأولية ؟
- نعم .

كانت الافعى مقطوعة الرأس ، وقد تولى أمرها حاملها ، وكان قبل الانخراط في الجيش راعي غنم ، يصف نفسه " أبا الليل " . وكان أهلاً لهذا اللقب حيوية ونشاطاً . فهو لا يعرف الخوف، والبسمة تعلو وجهه لا تفارقه ،أما عيناه ففيهما هدوء البحر العميق .

أمعنا في النظر إليها ..كانت أطول من رجل ، سوداء اللون ،ذات بقع بنية ... قال أبو الليل :

- فرخ صغير رفيعة كإبهامي ،(وكان إبهامه ضخماً) . لن يكون أذاها شديداً ... آخذها ياسيدي ؟
- وما تفعل بها ؟
- أسلخها ، وآكلها .
- أنت وما بدا لك .

ابتسم الملازم حسان ، ثم تلاشت ابتسامته ، وأطرق قليلاً ثم رفع رأسه وعلى وجهه طيف ابتسامة جديدة ..تنفس الصعَداء ، ثم قال :

- ذكرتني هذه الأفعى بحادثة جرت معي في إفريقيا .

ضحك الملازم محمد معلقاً :

- هو صحفي مشهور ، يكتب في صحيفة ال... زار أوربة وإفريقية ، وكتب عنهما كثيراً . فكان سؤالي البدهي :

- هل إلى قصتك من سبيل ؟
- على الرحب والسعة ..... هز رأسه كمن ينفض غبار النسيان عنها ، ثم قال :

منذ سنتين سافرت إلى (الكونغو برازافيل) أستطلع أحوالها وأحوال سكانها وعاداتهم لأعمل (ريبورتاجاً) صحفياً .. زرت مناطق عديدة ، وتعرفت على قبائل بدائية هناك ،ولا زلت أذكر (كورتو) زعيم قبيلة (الهانارا) ، كان رجلاً مضيافاً ،طيب القلب ، فيه ذكاء حادّ ، تجاوز

الخمسين عاماً ، طويلاً نحيفاً ..والزعيم هناك قائد وكاهن وطبيب ...وبتعبير آخر هو (الكل بالكل) ...قال محمد غامزاً لامزاً : كزعمائنا الأفاضل ،(حذو النعل بالنعل) .

وتابع حسان حديثه : دخلت بيته ، فبش بوجهي مرحباً ، وأجاب عن أسئلتي كلها مفسراً مرة ، ومعلقاً مرة أخرى . .. وكان يطوق عنقه بقلادة تكاد لطولها تصل إلى بطنه .. لكنها لم تكن من اللؤلؤأو المرجان ..لا ، لكنها من الودع المختلف الأحجام ، ومن العظام الصغيرة اليابسة ، يلعب بها وهو يحادثني ..كدت أسأله عنها وسبب حمله إياها .. وكأنه رآني أنظر إليها بين الفينة والفينة فابتدرني قائلاً :

- أراك تنظر إلى هذه القلادة كثيراً ؟.
- صحيح . وأنا معجب .
- ولعلك قلت في خبيئة نفسك : زعيم ورئيس يتقلد أموراً تافهة ؟! .
- أجبت وقد تورّد خدّاي أعوذ بالله .. لم أحدث نفسي بهذا مطلقاً .. وكنت كاذباً .
- هذه القلادة تقيك المكروه .!!
- مثل ماذا ؟
- من الحشرات والحيوانات ... وغدر الناس .
- القتل؟!! .. أمعقول هذا ؟
- أجل .. ما من غرابة في هذا .. وهي مجربة .

ونظرت دهشاً إلى من حولَه أستجلي النبأ الصحيح ، فأومأوا برؤوسهم مومّنين على ما يقول ....ولا حظ دهشتي فعمد إلى الفعل المؤيد للقول ، وأخرج مسدساً وناولنيه ، وقال :

- أطلق عليّ النار .

وضعت المسدس على الجلد، وأبيت ما أمرني به .

نظرت حولي فرأيت الابتسام يعلو وجوه الجميع .. أصررت على موقفي ، وقلت : لم أقتنع .

- لا نكذب عليك .
- أعتذر

فأشار إلى أحد الحاضرين ، فغاب قليلاً وعاد ومعه كبش أملح ... نزع القلادة عنه ، ولفها حول عنق الكبش ، ووجه إليه فوّهة المسدس ، وأطلق النار .

نعم .. لقد فرغ مخزن الرصاص ، وبقي الكبش واقفاً كأن الأمر لا يعنيه .

وأسقط في يدي ...فاقتربت من الحيوان أتلمسه ... إنه حي بكل تأكيد ... وضحك الحاضرون ، فقلت معانداً : لعلك لم تصبه !. .فأعطاني المسدس بعد أن ملأه بالرصاص ، فوضعته قريباً من رأس الخروف ، وأطلقت النار ....

نظر حسان إلينا ، فقلت له : قتل الكبش ؟ . قال : بل تساقطت الطلقات وكأنها قروش معدنية مستديرة ..... وعدت إلى مكاني معترفاً بما قاله سيد الهانارا . وقلت له :

- أتبيعني هذه القلادة ؟
- وما تفعل بها ؟
- تنفعني في حروبنا ضد أعداء بلادنا .
- أعطيكها بشرط واحد .
- لا تُغلِ الثمن ، فأنا (درويش) .
- أهديكها على شرط واحد .
- وماهو أيها الزعيم ؟.
- أن تؤمن بآلهتنا ، وتعتقد معتقداتنا .. بهذا تنفعك القلادة .

رفضت العرض ، ورفض أن يهديني إياها .. ولن ينفعني إلا الإيمان الخالص بالله لا الإيمان بالسحر والتعاويذ السحرية ....وقام الجميع يودون صلاة إلى آلهتهم . ورحت أشكر ربي سبحانه أن هداني إلى دينه القويم .

كانت القاعة التي نجلس فيها كبيرة ومليئة بفرش ووسائد لونها لون جلد هذه الأفعى التي قتلت الآن ، تحسستها بيديّ فقال كورتو :

- إنها جلد أفعى .
- قلت : كم أفعى قتلتم حتى حصلتم على هذا الحشد من الحشايا والفُرُش ؟
- أفعى واحدة ....!! قلت مستغرباً :
- ماذا تقول ؟ لا تهوّل الأمر عليّ فما أزال دهشاً بتأثير القلادة .

رمقني بعتاب ، ثم سألني :

- كم ستبقى عندنا ؟ قلت :
- يومين .. قال :
- بعد أربعة أيام يصير القمر بدراً ... ومن عادتنا اصطياد الأفاعي في الليالي المقمرة ، فلو صبرت حتى ذلك الوقت خرجت معنا في رحلة الصيد هذه .
- أصبر ... لا شك أن صيد الأفاعي الكبيرة خطر وممتع .

في منتصف ليلة الرحلة هذه كان الركب يسير وسط الغابة بين الأشجار الضخمة العملاقة ... أربعون رجلاً بأيديهم الرماح الطويلة ،قد انقسموا أربع جماعات .. الأولى في المقدَّمة ، والرئيس وأنا في مجموعة ثانية ، ووراءنا جماعتان ، وبين كل جماعة وأخرى

عشرة أمتار تقريباً . وفي مقدمة كل جماعة رجل يحمل مشعلاً ، وخلفنا مباشرة عربة تحمل كبشين مشويين.

كنا أشبه ما نكون بعصابة عاشت في الألف الأولى قبل الميلاد تنطلق ليلاً إلى جماعة أخرى تغير عليها ، فتقتل وتسلب .. هكذا خُيِّل إليّ ، وداخلني شعور لذيذ .. ورحت في أحلام متقطعة لا أدري كيف تبدأ وكيف تنتهي .

وتوقف الركب . وإذا نحن في باب ساحة صغيرة مستديرة ، قطرها أطول من خمسة عشر متراً ، وحولها الأشجار الكثيفة الضخمة العالية . وترجلت عن حصاني حين رأيت القوم ترجّلوا . ووقف كورتو يلقي عليهم أوامره ..... ثم انطلقوا إلى أعمالهم متوزعين بين الأشجار متصايحين .

وبدأ الظلام ينقشع رويداً رويداً ... ولا يخطرنْ ببالكما أن الصبح قد حلّ ..لا.. لكن كل واحد منهم أضرم ناراًعظيمة حتى حسبت أننا في مهرجان شعبي كبير ، أو في حفلة افتتاح معرض دمشق الدوليّ .. وبدأت ضربات الطبول تتجاوب في أنحاء الغابة قوية رتيبة .. وشاهدت بأم عيني كثيراً من الحيوانات المفترسة منها والنباتية تخلي المكان فزعة .

كان أحدهم قد أوقد ناراً في وسط الساحة ، فبدت معالمها واضحة تماماً ، تفحصتها مليّاً ، فإذا هي سور دائري من جذوع ضخمة ، جذورها آخذة في الأرض ، ولا يتجاوز ارتفاعها المترين ، يُدخل إليها من فجوة في الشرق وأخرى في الغرب . كل واحدة مسدودة

بجذع عرضاني من فوقُ ، فإذا الفجوة – وسمّها باباً إن شئت – مربع الشكل ، عرض كل ضلع م أكبرمن متر بقليل ..

نظرت إلى شمال الساحة فوجدت شجرة كبيرة امتد أحد أغصانها الضخمة فوق السور على شكل شعب كبير ، ثُبّتَ عليه كوخ صغير ، يطل الواقف عليه من نافذته الصغيرة على الباحة من علٍ ، وكانت الساحة مسقوفة تقريباً ... حُمل الكبشان إلى الداخل ، ووُضع أمام كل باب واحدٌ .

زاد قرع الطبول حدة . ونظرت إلى الخروفين وأنا أشعر بالجوع ممنيا معدتي بطعام شهي لذيذ ... وسألت نفسي : لم جعلوا الخروفين على الأرض ؟ .. لقد اتسخا .. أليس من الأفضل وضعهما على المحفة ؟!.

مرت ساعة من الزمن تراخت فيه الأيادي على الطبول ، فكنت تسمع بين الفينة والأخرى صوتاً يملأ الغابة مدوياً ثم ينتشر السكون مرة أخرى ... وفجأة لمحت رجلاً يركض نحونا ، ثم قال بما يشبه الهمس : لقد رأيتها من بعيد تتجه نحونا .

أوعز "كورتو " إلى رجاله فتسلقوا الأشجار ، وأمسك بيدي ، فصعدنا الشجرة ودخلنا الكوخ ... كان الزعيم مبتسماً ينظر نحو الشرق ، فنظرت في الاتجاه نفسه ، فلم أجد شيئاً ، وسألته مستغرباً سرعة الرجال من تسلقهم للأشجاروصعودنا للكوخ!! قال : سترى بعد قليل شيئاً يدنو منا، فلا تخف . كلنا هنا .... وكأن كلمة " لا تخف " جعلت الخوف يزحف إلى قلبي ، فالوضع مبهم .. لا أعرف ما سيكون بعد قليل .

دخل الجميع بين أوراق الأشجار ، فما عدت أراهم ، وجذبني الزعيم إلى داخل الكوخ ،وأغلقه علينا بإحكام . سألته خائفاً : لماذا ؟ فأشار إليّ من شقوق أغصان الكوخ أن انظر .... ونظرت ، وكدت أسقط على ركبتيّ من هول ما رأيت ... .. إلا أنني استجمعت نفسي حين رأيت من معي يتطلّعون إلى الخارج ، وكأن شيئاً ليس يعنيهم ... ورجفت أعضائي بشدة لتهدأ قليلاً بعد ذلك .

رأيت قطاراً يتلوّى بين الأشجار متجهاً نحو الساحة طوله عشرات الأمتار ، وعرضه كبرميل منتفخ ، في مقدّمته فم واسع كأنه باب كهف ، أو مدخل نفق ، يلوح فيه ذات اليمين وذات الشمال سوط كذنب البقرة طويل .. وفي رأسه قرنان كأنما وتدا خيمة كبيرة ، وأمامهما دائرتان واسعتان كمصباحي سيارة أماميين .

الجميع يلوذون بالصمت ، وفحيحها يعلو شيئاً فشيئاً، وهي تقترب متمايلة ... حتى وصلت إلى الباب الشرقي ، فأدخلت رأسها والتهمت الكبش دفعة واحدة .وقبل أن تهم – على ما أظن – بالعودة رأت الثاني فتقدّمت والتهمته سريعاً .. نظرت حولها فلم تجد ثالثاً .. حاولت الخروج فلم تستطع ... وعرفت في ذلك الوقت فقط لمَ وضع الكبشان في الداخل ... ولعلك ياصديقي خمّنْتَ السبب أيضاً.

لقد دخلت الباب كما يدخل الخاتم في إصبع مالكه ، فلما التقمت الكبشين تضخمت رقبتها ، فعلق رأسها في الداخل وباقي جسمها خارج السور .. حاولت الخروج من الباب الثاني ، فلم تفلح .. شعرت بالضيق ، فبدأت تصفر وتنبح وتضرب السور برأسها .. ولكن مَن يستطيع إزاحة شيء ربعه فوق الأرض وثلاثة أرباعه متعشق جوف الثرى ؟!!

لقد كانت لطماتها جبارة ، لو أصابت سفينة ضخمة لأغرقتها ، أو بناء كبيراً لهدّمته .. ورفعت رأسها فخيل إليّ أن الكوخ سيطير في الهواء ، وقفز قلبي إلى حَنجرتي ، لكنها لم تصل فقد كنا في العلاء .. وابتسم الزعيم يخفف من روعي .. ثم تثاقل رأسها فبدأت حركته تتباطأ ، ولم تمض دقائق حتى هدأتْ ....

ثم رفع "كورتو " علما أصفر فانحدر أحدهم بخفة من شجرته ، ودخل على حذر من الباب الغربي ، فمرر إحدى يديه أمام عينها ، وأطلق ساقيه للريح ... لكنها لم ترفع رأسها ، فقد أفقدَتْها الحركة الكثيرة والصرخات واللطمات وعيها، فأخذت في غيبوبة عميقة .

دخل اثنان مع كل منهما رمح .. واقتربا على حذر شديد منها ، ووجأا عينيها ، وعادا بلمح البصر .. أما هي فقد ندّتْ منها صرخة عظيمة رجف لها أصغر ذرة في كياني ، وعادت تلطم ما حولها بأشد ما فعلتْ من قبل . .. وهنا بدأت النبال والحراب تنوش رأسها ومقدمتها ليس غير، ليبقى جلدها سالما يستفاد منه ....

وهدأت المسكينة هدوءها الأبدي .....

كلمت جنياً

ما أجمل الربيع ! .. صباحه ومساءه ، وأصيله وليله كذلك .

من عادتي أن أصلي الظهر بعد إنهاء التدريب اليومي لسريتي ، ثم أستلقي على سريري، فلا تمضي لحظات حتى أستغرق في سبات عميق ... أفيق منه بعد العصر وقد غسلت عني التعب وعدت نشيطاً، فأصلي ثم ألبس ثيابي الرياضية ، وأنطلق إلى ملعب كرة الطائرة ، فأنضم إلى أحد فريقيها ، وغالباً ما أعود خاسراً ، فهذا حظي من اللعب .

ويبدأ قرص الشمس بالاحمرار وهو يودّع الهضاب والوديان ، وينحني رويداً رويداً حتى يغيب بتواضع جمٍّ وراء التلال. وعند ذلك يخاطبك القمر بأدب لطيف : أتريد أن تسهر معي؟ فتجيبه : نعم ، حبذا صاحب أنس أنت ... فيرسل ضحكات فضية ترتسم على أديم الأرض وتكسب الوجود هيبة وجلالاً ، ومن ثَمَّ ترى أشباح الجنود طفيفة ، وتسمعهم يتنادَون لقضاء سهراتهم في بعض الخيام ...

وأجلس على دَكّة أمام خيمتي أحتسي الشاي ، أو أتناول العشاء ، ثم أقرأ بعض القصائد للبوصيري أو البُرَعي رحمهما الله أو للأعظمي العراقي الذي أعرفه ، فقد توفي رحمه الله تعالى منذ سنوات قليلة– مترنماً بها ، أعيدها مرات بأنغام متنوّعة .. ولا أخفي عنك أنني مولع بالموسيقا الحلال مشفوعة بهدوء الليل وأنسامه المائسة .

ورنّ جرس الهاتف اليدويّ ، فرفع سمير سمّاعته – وسمير جندي دمث الأخلاق ، لطيف المعشر ، يلازمني دائماً – ثم نظر إليّ ، وقال :

- سيدي : الملازم محمد يود الحضور إن أذنت له .

- أهلاً به ومرحباً .

ولم تمض لحظات حتى رأيت ضوءاً ينوس من بعيد ، يزداد وضوحاً مع اقترابه . وعلى مدخل السرية : قف . من أنت؟ أطفئ النور .. تقدم قليلاً .. كلمة السر ... أهلاً بالملازم محمد .

لم يكن وحده ، إنما كان معه ضيف لم أره من قبل .. عرفني بنفسه : الملازم حسان .. رحبت بهما أجمل ترحيب ، فقد كان الملازم محمد عزيزاً عليّ قريباً إلى نفسي ، يشع وجهه نوراً وتتألق عيناه نُبلاً ، ولا تفارق البسمة ثغره ، متّزناً ، فإذا تكلّم أفاد علماً وأرسل حِكَماً .. ولست مبالغاً في وصفه ... وأظنك تلومني على تقصيري في مدحه – لو عرفتَه .

وما إن جلسنا قليلاً حتى حان وقت صلاة العشاء ، فصليت بهما إماماً، وقرأت سورة الجن .

قال صاحبي محمد بعد الانتهاء من الصلاة : سورة الجن هذه ذكّرتْني بقصة لا أنساها ما حييت .. ولم ينتظر تعليقاً ، فقد قال : هل رأيتما جنّياً من قبل ؟..

قلنا : لا .

قال : ألم تكلما واحداً من الجن من وراء ستار ؟

أجبنا : بالتأكيد لا .... وهل يعقل ذلك ؟! ..

قال بهدوء كعادته : أما أنا فلم أر جنّياً ، لكنني كلمتُه ، بل تجاذبت معه أطراف الحديث ، بل تحادثنا طويلاً ، وسألته عن أشياء ، فأجابني ، واستفسرته عن أمور ، فوضّحها ، واختبرته في مقدرته الخارقة ، فأثبت جدارة ..

قلنا : لقد شوّقتنا ، فهات القصة من بدايتها ...

قال : مَن منكما لا يعرف مؤسسة " الرسالة " البيروتية اللبنانية للطباعة والنشر ؟

قلت : ما من مثقف لم يقرأ كتاباً أصدرته .. فقد طبعت عشرات الآلاف منها .

قال : عملت فيها سنوات عديدة ... عملي الوحيد أن أطّلع على ما ألفه الكتّاب ، فإذا وافقت مؤلفاتُهم الدار فكراً وأخلاقاً ومضموناً طبعناها وإلا اعتذرنا إليهم .

قال حسان : وما علاقة عملك بالقصة ؟

قال : من هنا نبدأ :

كنت وزميلان لي في العمل نتحدث عن الملائكة والجن والمخلوقات اللطيفة ، ولا نصدق أن الإنسان يمكنه أن يتحدّث إليها ، ففاجأنا أحدهما قائلاً : ما تقولان في أن أجمعكما بواحد من الجن ؟.

قلنا مستغربَين : نظنك مازحاً!.

قال : بل أقول الحقيقة .

قلنا وكيف ؟!.

قال : لي أخت عمُرُها لا يتعدى ست عشرة سنة ، أصيبت منذ شهرين بانفصام الشخصية ... تكون هادئة فإذا بها تنقلب ثائرة . وثقافتها بسيطة ، فقد حازت الشهادة الابتدائية فقط ، إلا أنها تتكلم – أحياناً – كلام العلماء ... صوتها ناعم . لكنه فجأة ينقلب صوت رجل ...

عرضناها على الأطباء فلا عرفوا لها داء ، ولا وصفوا لها دواءً ...

أخذناها مؤخراً إلى شيخ يتعاطى قراءة الرقى ، ويقرأ للمرضى ... فأخبرنا أن أحد الجن تلبّسها . فدُهشنا ، فأكد لنا هذه الحقيقة ...

قال الملازم محمد لم نصدّقْ ما يقوله ، ورحنا نهزأ بهذا الحديث ونتهكم به ، ونقول : أضغاث أحلام . اترك لنا عقولنا سليمة يا هذا ، ولا تحدثْ به أحداً فيضحك منك .

قال : والله ، إنها لحقيقة ، ولن أدعكما متأرجحَين بين التصديق والتكذيب ... وسأحسم الأمر إن شاء الله ... أنا أدعوكما اتناول الغداء عندنا غداً ، وستجتمعان بأختي ، وتأتيكما بالخبر اليقين ... وإذ ذاك تُقرّان بالحقيقة ..

قال محمد : وانطلقنا في اليوم التالي إلى بيت أحمد ... وتناولنا الغداء ، وبعد شرب القهوة لم أتمالك نفسي أن قلت : أين أختك يا أحمد ؟.. ألا تدخل علينا فنسمع منها ونكلمها ؟!...

قال : لم أنسَ ذلك ...

وخرج من الغرفة يدعوها ، ولم تمض دقائق حتى دخل ، ودخلت وراءه فتاة متحجبة ، لا يظهر منها إلا وجهها وكفّاها ..... سلّمتْ ، ثم جلست ورحّبتْ بنا ... كان كلامها طبيعيّاً وصوتها رقيقاً .. نظرت إلى أحمد نظرة ذات معنى ، وكذلك نظر إليه صديقنا الآخر ... ففطن إلى ما نقصد ، وحسم الموقف بقوله : كيف حالك يا شيخ محمود ؟..

تغير وجه الفتاة ، فاحمرّ قليلاً ، وبدت ملامحه قاسية ... وإذا صوتٌ ذو لهجة سعودية خشنة من داخلها : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ....

لم أدر ما حلّ بصاحبي لأنني شغلت بنفسي ، فقد زادت دقات قلبي عنفاً، حتى كدت أسمعها ، وشُدِهت ، ووقف شعر رأسي ، واصطكت ركبتاي ، فلم أعد أستطيع الحركة . ولم أستطع بادئ الأمر أن أجيب ... وعلمت بعد ذلك أن صاحبي حاول الهرب فخانته رجلاه وسقط على الأرض ...

لملمت نفسي بعد لأي ، ورددت بصوت متهدج :

وعليـ...كم .. الـ..س.. لا..م .. ورحححـ مة .. الله .. وبررر كاااته ..

وأدرك صاحب الصوت ما حلّ بنا ،فقال مؤانساً: أنت محمد الـ.. تعمل في مؤسسة الرسالة .. تسكن في ... وزوجتك اسمها ... ولك ولدان اسماهما ... وكأن بطاقة أسرتي كانت معه يقرأ منها .

ثم فعل بصاحبي الذي يعمل معي منذ أكثر من أربع سنوات ما فعله معي ، فذكر عنه معلومات لم أكن أعرف منها إلا القليل ، فازداد عجبنا .

بدأت نفسانا تهدءان قليلاً قليلاً ،.. سألته بعدها : كيف عرفت هذه الأمور عنا ؟

قال : أعرف أكثر منها بكثير ، إن شئتَ زدتُ ؟

قلت : لا ..ولكن أسألك أسئلة تجيبني عنها بصراحة ووضوح .

قال : على الرحب والسعة . .. ثم إنني مسلم مثلكم .

قلنا : مسلم ؟!.

قال : نعم ، واسمي كما سمعتموه من قبل : الشيخ محمود .

قلت : لهجتك كما تبدو سعودية .

قال : أجل ، فأنا من جن السعودية فعلاً.

قلت : ومن علمك أمور دينك؟.

فزفر زفرة فيها حسرة مكبوتة ثم قال :

اسمع يا أخي محمد ، هل تعرف الدكتور " سعيد الطنطاوي "؟

قلت : كيف لا ، وهو أخو الكاتب الكبير " علي الطنطاوي " ! ثم إنه أول من نال الدكتوراة في الرياضيات من العرب الشرقيين في السوربون ؟ وهو يدرسها الآن في جامعة الرياض .

قال : نعم هو ما قلتَ ، ولكنه يدَرّس أيضاً الفقه والحديث في أحد مساجد الرياض .. وقد كنت ألازم حلقته إلى أن سُجنتُ في جسم هذه الفتاة .. رحم الله تلك الأيام .. أصبحت الآن ذكريات أشتاقها ، وأحن إليها .. كنت أستمع إلى دروسه ،و أرى من مكاني المسجد الحرام ، وأصلي أوقاتي كلها فيه .

قلت : وكيف ذلك ؟

قال : هذا أمر هيّن علينا معشر الجن .

قلت : أراك تتحسر. وذكرتَ أنك سجين في جسم الفتاة ، فهل يعني هذا أنك مجبر على دخول جسمها ؟... ولماذا؟..

قال : كما أن الإنس إذا أخطأ بعضهم عوقب بدخول السجن كذلك الجن إذا أخطأوا عوقبوا فسجنوا ... وقد يكون سجنهم في جسم إنسان .. وليست كل أجساد بني آدم تصلح لسجن الجن .فهناك شروط يجب أن تتوفر في جسم الإنسان .. ولن أذكر هذه الشروط لئلا يتوهّم حاملوها ، فيُصابوا بالجنون من شدة خوفهم . وجسم هذه الفتاة جاهز لعقوبة الجن .

قلت : لماذا كان نصيبك جسم هذه الفتاة لا غيره؟

قال : سؤالك وجيه .. هذه الفتاة مسلمة حيية طيبة . اخترت جسمها إشفاقاً عليها من جنيٍّ مذنب شقي فاسد الأخلاق يُطرح فيها فيذيقها(في سجنه) آلاماً ، ويلعب بأعصابها ، ويخرجها عن طورها .. وربما يؤدي بها إلى الجنون الكامل .

كان صاحبنا الآخر ، واسمه سليم قد هدأ روعه ، وسكنت نفسه ، فسأل الجنيّ : أين يكثر الشياطين ؟ .. وهل هناك فرق بين الجن والشياطين ؟

قال الشيخ محمود :أجل .. هناك فرق كبير بين الجن والشياطين ، فالجن هم الذين آمنوابالله تعالى رباً، وبالإسلام ديناً ، و بالرسول عليه الصلاة والسلام نبياً... والشياطين هم الكفرة ... وهؤلاء يكثرون في أماكن القذارة والأوساخ . ولهذا يأمركم النبي عليه الصلاة والسلام بالاستعاذة من الخُبُثِ والخبائث كلما أردتم دخول الخلاء .. فالشياطين يعربدون ويقضون أسعد أوقاتهم في تلك الأماكن . فإذا تعوّذ أحدُكم هربوا كما يهرب اللص من شرطة تلاحقه .. أما الجن فيطربون لذكر الله تعالى .

قال سليم : كنتم تصعدون إلى السماء فتسترقون السمع :" وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع " فلما ولد الرسول عليه الصلاة والسلام مُنعتم بالشهب ، تنقض على المسترق فترديه قتيلاً " فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصَداً " .

قال : نعم ، فلا تخطئه أبداً، إن سهام الله تعالى لا تخيب . إنها صواريخ " جَوْجَوْ " تقتنص الشياطين اقتناصاً .

وضحكنا، وبدا الانشراح على نفوس الجميع ، وأخذنا في الاندماج، وزال الوجوم والخوف، ثم أردف الشيخ محمود : نستطيع أن نتجوّل بعيداً عن الأرض قليلاً ولكن الويل لمن يتجاوزها كثيراً .

قال أحمد :قرأت في كتاب " الروح " لابن قيم الجوزية رحمه الله أن عيسى عليه السلام يحب " الفول " فكان طعامه المفضل ، وأن الفول طعام الجن أيضاً .

قال الجني : نعم ، في كلامك شيء من الصحة ، إلا أنني أحب الحلوى ، فأنا مغرم بها .

قلت : ما المقدار الذي تتناوله في الوجبة الواحدة ؟.

ضحك الشيخ محمود ، وقال : نحن أجسام نيرانيّة ، لا نأكل كما يأكل الإنسان . لو تصورتم جرة مليئة بالعسل ،حطّت عليها ذبابة ، ثم طارت ، هل تنقص منها شيئاً؟.. هذا ما نأكله .

قال سليم : سبحان الله الذي زوّدكم بقدرات خارقة يعجز عنها البشر . لقد سعدنا بهذا اللقاء ، وكنا نتمنى أن يكون زميلنا عبد الله معنا ليعيش هذه اللحظات الطيبة ، لكنه سافر إلى طرابلس صباحاً .

قال الجني :هل ترغبون أن أخبركم بما يصنع الآن ؟... انتظروا دقائق .

ومرت ثلاث دقائق لذنا فيها جميعاً بالصمت ,, ثم ظهر صوت الجني جليّاً:

هو جالس الآن مع زوجته وولديه يتناولون طعام الغداء المكون من كذا وكذا .. وهو يلبس ثياب النوم ,, وزوجنه وولداه ... وذكر لنا أشياء وأشياء ..

قام أحمد إلى الهاتف ، واتصل بعبد الله في طرابلس :

يا عبد الله ، أنتم تتناولون طعام الغداء وهو كذا وكذا ، وأنت تلبس ثياب النوم ... وبدأ يسرد عليه ما قاله الشيخ محمود ..

قال عبد الله : إنه الشيخ محمود الذي فضحنا .. أليس هذا صحيحاً ؟

بات اللقاء مريحاً والحديث مفيداً مسلياً .. ونظرت إلى ساعتي فوجدت الوقت قد مرّ سريعاً ، فقلت : لي سؤال واحد ، ثم أرجو أن تأذن لي بالانصراف أيهاالأخ الجني المسلم .

قال : ماهو ؟

قلت : متى تخرج من سجنك هذا ؟.

قال الجنيّ: سيتولّى أحمد – أخو الفتاة – الجواب على سؤالك .

قال أحمد : نعم .. لقد سألت الشيخ القارئ ، فأخبرني أن الشيخ محموداً سيخرج من أسره بعد يومين إن شاء الله .

قال الجنيّ : أرجو ذلك ، ولن أنسى هذه الأسرة الطيبة .. وسأدعو لها بالخير

..... وأخبرنا أحمد بعد يومين أن أخته قد برئت مما ألمّ بها .

لحظة الانعتاق

كانت الرياح تزأر ، والأشجار تئن ، وأعمدة الكهرباء تعوِل ، وحبالها تصدر صفيراً حادّاً ، ونحن في دارنا نعيش سعيدَيْن متحابّيْن ، كأن الدهر قال لنا :

" عليكما الأمان " حياة رغيدة هانئة .... هكذا كنا منذ سنوات .

وطُرِق الباب بعنف طرقات متتالية ، وهُرعت زوجتي إليه وفتحته ، فسقط بين يديها جسم ليس فيه من الحياة سوى أوصال ترتجف ، وقلب ينبض .... أما الجسم فقد كان بارداً ، والرجل شبه فاقد للوعي ... حملناه إلى غرفة النوم حيث الدفء والهدوء ,,,وكنت أرقبه عن كثب ، فهو أصغر مني بسنوات ، نحيف إلا أن نحافته غير واضحة لأنه يميل إلى القِصَر ، شعره أسود وعيناه ذابلتان ...

كانت الكآبة تبدو على زوجتي ، وكان القلق لا يفارقها مذ دخل هذا الإنسان علينا . فظننت أن سبب هذين أن القادم عكّر علينا سويعات الحب التي غمرت البيت في هذا الوقت بدخوله ، ولا سيّما أنها من الصنف الذي يكره الضيوف الغرباء ، ويستثقل ظل من لا يعرفهم . فيظل منقبضاً مدة ليست بالقليلة إلى أن تعتادهم فيسرّي عنها . ثم تعود إلى طبيعتها قليلاً قليلاً . وعزوت هذا إلى نفسية جبلت عليها لا أدري لها سبباً .

عزم الرجل بعد استعادته وعيه وهدوء الجو قليلاً على الذهاب شاكراً لأهل البيت حسن استقباله ، ولم يكن في الدار غيري ، فقد كانت زوجتي خارج الدار في عمل لها .. وألح برفق على الخروج ... وفتحت له الباب ... وكانت المفاجأة ... فقد دخلت زوجتي ضاحكة وكانت قد وصلت لتوها إلى الباب وقد وضعت المفتاح في ثقبه تريد فتحه .. صاح الرجل : دريّة .. دريّة .. ثم

غاب عن الوجود ثانية .. أما هي فقد تغير لونها وأشاحت بوجهها كأنها لا تعرفه .. بل إنها حقاً لا تعرفه !... وحملناه إلى الكرسي قرب الموقد . ولم تمض لحظات حتى أفاق .. من هي دريّة ؟ لعلك كنت تحب واحدة هذا اسمها أشبهتها بزوجتي ، فذكّرتْك بها حين وقعت عيناك عليها ؟ .. قال : إنها هي .. قلبي يحدثني بذلك أو لعلها أختها أو قريبتها .. ثم أطرق هنيهة ، ورفع رأسه بعدها قائلاً: دخلت إحدى المستشفيات منذ سنوات ، مريض الجسم منهكه .. كنت على شفا الموت ... ولن أطيل عليك .. فقد اعتنى بي وجه ملائكيّ طاهر أعاد إليّ الحياة سريعاً .. اسمها دريّة .. جعلْت قلبي صدَفتَها . كان حبها ينمو بسرعة عجيبة في كل جارحة من جوارحي ، وزاد من حبي لها يقيني أنها تبادلني هذا الحب العميق . لقد كنت أحس أنها باتت جزءاً مني ، وبت قطعة منها هذا ما شمته في عينيها–على الرغم أننا لم نتبادل الحديث مطلقاً .

وخرجت من المستشفى مريض الفؤاد عليل الروح ، خاوي الجيوب مثقلاً بالديون . وانطلقت– في دور النقاهة — أعمل وأعمل ، ليلاً ونهاراً ، ونصب عيني أمل عزيز على نفسي .. أن أجمع شيئاً من المال ، أقضي به ديوني ، وأضم حبيبتي إلى قلبي وصدري .. إلى عش الزوجية السعيد . ومرت الأيام ثم الشهور ثم السنة .. وكان ما أردت من مال وفير .. ثم وجّهت وجهي إلى المستشفى ، فوجدت العصفور قد طار .. وا أسفاه .. وا سوء منقلباه ... بئست الحياة ... ما أتعسها ...

كنت أسمعه بشغف وهو يذكر لي مأساته ، وقلبي ينفطر له . ثم صحت دون أن أعي : هيام ... ياهيام .. ومن بعيد جاء الجواب : نعم .. أنا قادمة . يا درية ، أنت درية . ألستِ كذلك ؟! الم تكوني تعملين هناك .. في المستشفى .. ألم تذكري لي مرة أنك عملت ممرضة قبل أن

ألتقيك بفترة وجيزة؟ .. كانت قد وصلت . لكنها أنكرت ما أناديها به ، ثم انهارت فجأة .. وأقرت بما أنكرت .

ودخل والداي وأختاها علينا وعرفوا القصة .. ولم تمض ساعة حتى قلت كعادتي ... هذه العادة التي لا أدري سبباً واحداً لتحكُّمها بي .. أتكون هذه العادة أصيلة فيّ لشعوري بالعطف على الآخرين حتى لو ظلمت نفسي؟! أم لإسعاد القلوب على حساب قلبي ؟! أم لضعف منه تجاه رغبات الآخرين ؟! .. لا أدري .. لاأدري .. إلا أنني قلت لها : إن أحبَبْتِ أن أسرّحك فتزوّجْتِه ؟ .. فالأمر أمركِ ، وأنا أضعه بين يديكِ .

وانشَدّتْ عيوننا كلنا إليها ....

يا لتلك اللحظات القاتلة !! التي شعرت فيها أن كلمات الحب التي كانت تعطّر بيتنا في أيامنا القريبة الذاهبة ستذهب هباء .. وأن حبها له الكامن في حناياها ، وفي جزيئات قلبها عاد أشد ما كان نيراناً .. ماذا تقول ؟ ... إنها إن ارتأت البقاء في بيتها إلى جانب زوجها فسيلفحها هجير العشق المتوقد فيها للضيف .. هذا الهجير الذي حسبته انطفأ رماده إلى الأبد . فعاد أقوى ما يكون .. وستقتل صاحبه أيضاً في الوقت الذي لن تسعدني بعده أبداً .

وإن اختارت من تحب فسيكون زوجها الذي منحها حبه وحياته نهباً للضياع وفريسة للشقاء ! إنه تعرف مدى شغفه بها وتعلقه بحبها ! لن يمكث على ظهر الأرض إلا يسيراً .. ويحها ما تفعل ؟

هذا ما قرأته على وجهها ... أما والدي فقد قال لها : يا ابنتي : إنه زوجك وحليلك الذي أحبك... وأحبك ، وما ذاك إلا غريب أقل قدراً وعلماً ومكانة بين الناس ، فلا داعي للحيرة ، ولْينصرف ذاك الغريب الذي دخل حياتكما فكاد يقلبها .

لم تجبه . بل أشاحت بوجهها عنه ، فكيف يكون حبها الأول الذي ملك لبها أقل الناس ؟! لا لا.. إنه خير من على ظهر الأرض ... هكذا شعرْتُ ... فناداها هو نداء المتمكن من ربح جولته : هيا يا دريّة هيّا .

وكأنها ارتاحت لندائه وتشجيعه ، ففتحت فاها لتنطق بالحكم المدمّر الذي يقطع أعصابي ويشل حياتي .. فوضعت أصابعي أمام وجهي لأحول قدر الإمكان من هول ما سأسمع كما تطمر النعامة رأسها في الرمال خوفاً من مصيرها بين فكّي أسد مفترس .

إلا أن القدر كان أرحم بي من نفسي .. فقد انتفضت من نومي مذعوراً ، والحمى ترتع في جسدي

مشاعل على الطريق

كانت مهمة وحدتي في صبيحة يوم المعركة مراقبة تحركات العدو والتأهب الكامل لصد أي هجوم إسرائيلي مضاد من الممكن أن يقوموا به ... تمركزنا في " رويسة القندول " أقرب نقطة إلى العدو الذي كان مرابضاً على " رويسة الحمراء" وهما مرتفعان ، الأول في الشرق والثاني في الغرب ، ويبعد أحدهما عن الآخر أكثر من ألف متر تقريباً .

كان النهار مشرقاً والسماء صافية إلا من بعض الغيوم الصغيرة المنتشرة هنا وهناك . .. الجنود مستعدون والأسلحة المضادة للدرع في مكانها المرسوم متجهة إلى مكان الخطر المتوقع . والجنود بعضهم يراقب ، وبعضهم يأكل ، والآخرون يتحادثون . .. وأنا جالس بالقرب منهم أنظر إليهم مشفقاً من المصير المجهول الذي سنعيشه بعد ساعات ، أقلب طرفي بينهم وأحدث نفسي : من الذي سيعيش إلى ما بعد المعركة ؟ من الشهيد منا؟ أين الجبان ؟ ومن هو الرجل ؟ ..

ثم تأوهت : إن غداً لناظره قريب .

قفز " علي أبو حلاوة " فجأة إلى كرم التين القريب ، فصحت به :

احذر الألغام يا علي .

قال : يا سيدي " فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون " .

قلت : لا أريد أن تموت رخيصاً .آمرك بالعودة .

فعاد أدراجه وهو يضحك ومعه قليل من التين وقال : بالله عليك يا سيدي كل واحدة . إنه لذيذ . ولعله آخر ما آكله في الدنيا .

قلت مازحاً :" عمر الشقي بقي " الأجل بيد الله يا علي .

قال : إني أشم رائحة الجنة من هذه الثمرة ، ففيها نشوة عجيبة .

قبل عشرين يوماً جاء دوره في الإجازة ، وكان مشتاقاً إلى أهله في الحسكة ... ناديته يومذاك ليسافر إليهم فرجاني أن أؤخره إلى عيد الفطر .

قلت : إن العيد بعيد ... بعد أربعين يوماً .

قال : أنا راض ... وسافر من يليه إلى أهله .

وبعد عشرة أيام قلت له : أما زلت عند رغبتك أم تسافر ؟

قال : بل أريد قضاء العيد بين أهلي ... وسافر غيره .

وبقي للعيد عشرون يوماً ولم نكن في مواقعنا الخلفية إنما على الحدود.. أقرب ما نكون إلى يهود .

قال إبراهيم : لست مشتاقاً إلى أولادي الآن ، فقد جئت أمس الأول وكانوا بخير وعافية . وأمهم ترعاهم بحنان الأم وقسوة الأب .

كان إبراهيم أكبر الجنود عمراً ، قد تجاوز الخامسة والثلاثين ... مات أبوه وهو صغير ، فكفله أحد تجار الغنم من أصدقاء أبيه فرباه ثم زوجه عندما شب . ورزق بأربعة أولاد ، ثم جاء الخامس قبل شهرين . لم يؤد الخدمة العسكرية إلا عندما بلغ ابنه السابعة من عمره ، وأراد إدخاله المدرسة ، ولكن كيف يدخل المدرسة وأبوه وهو وإخوته ليس لهم قيد في السجل المدني ؟.. واضطر أبوه أن يسجل أسرته في عداد الأحياء في سجلات البلدية ، وذهب الولد إلى المدرسة

والتحق أبوه في الجيش .ومنذ عشرة أيام أنهى إبراهيم خدمته الإلزامية ، لكنهم لم يسرحوه من الجيش لأن حرب تشرين على الأبواب .

رد حمدان : ولكنني مشتاق إلى ولدي الصغير ، فقد تزوجت منذ سنتين ، ورزقنيه الله ، فهو عصفور البيت وبهجة الحياة .

قلت : ستراه عما قريب إن شاء الله .

كان حمدان قوياً كرفيقيه إلا أنه أجلد منهما وأصبر . مفتول الساعدين ، مربوع القامة . تلمح في قسماته الشجاعة والمروءة . وكنا نسميه " البلدوزر " لنشاطه وقدرته الفائقة في صنع الحفر والملاجئ . ولا أبالغ إن قلت : إنه يكافئ في عمله ثمانية من زملائه .

انطلق صوت المؤذن في قرية " جباتا الخشب " القريبة منا فأنهى الحديث ، وقمنا إلى الوضوء من جدول ماء ينساب من أحد الشقوق الصخرية ، وصلينا الظهر ، ثم عجت على الجنود أتفقدهم وأرفع من معنوياتهم – ولم يكونوا بحاجة إلى ذلك – وأفتش عن الجاهزية القتالية ، ثم أطللت من الخندق على استحكامات العدو القريبة والبعيدة ، وسبحت عيناي في السهل المنبسط أمامي إلى الجنوب ثم إلى " تل الضهور " في الجنوب الشرقي حيث القيادة العامة للواء ...كان الهدوء يسيطر على الوجود .

- سيدي يريدونك على الهاتف .
- نعم : الساعة الآن الثانية إلا عشر دقائق
- .....
- حاضر . نحن جاهزون ، يقظون .. مع السلامة .

- ووضعت السماعة ، وناديت الجنود : تبدأ قواتنا هجومها في تمام الثانية .
- قال الجميع بسم الله .. الله أكبر .
- قال حامل اللاسلكي عبد الله الخطيب : ربنا عليك توكلنا ، وإليك أنبنا ، وإليك المصير .

.... آمين ....

انقلبت الأرض براكين وحمماً ، فالطائرات تقذف شواظها فوقهم ، يساعدها في ذلك مختلف الأسلحة الثقيلة من مدافعَ طويلةِ المدى وهاوناتٍ ودبابات ، والنار تلتهب في كل مكان ، والدخان يملأ الساحة . ... وولى الهدوء والسكون ، فكنت أبذل جهدي لإيصال صوتي للجنود .

وظهرت دبابات ثلاث معاديات في خندق العدو المنبسط أمامنا

يا شاكر .....نعم سيدي ...

هل رأيتهن ؟..... بكل وضوح ...

نار ... وانطلق صاروخ " مالوتكا " يسبح في الفضاء كأنه طائرة ميغ صغيرة .

كانت الدبابة تناوش موقعاً جنوبياً لنا غير شاعرة بالموت الذي يهرول سريعاً إليها ... ووصل الصاروخ إليها بعد دقيقتين .فاحمرت كالجمرة ، ثم تفحمت وانكمشت إلى نصف حجمها الأصلي .... بارك الله فيك .... وقبله زميله فاروق بحرارة .

- الثانية يا بطل .

وانطلق رسول عزرائيل يتحدى الحياة حاملاً الموت الزؤام ، لكن الدبابة راوغت وحادت عن سبيله ، فاصطدم بالأرض .

صاح فاروق : ضاع الصاروخ .

وحدث ما لم يكن في الحسبان ... يبدو أن الصاروخ اصطدم بصندوق ذخيرة على طرف الخندق فانفجر ودمر الدبابة ، وخرج منها ثلاثة لائذون بالفِرار ، سقط منهم اثنان دون حراك ، وطار الثالث كأنه بطل سباق .

أقسم شاكر ليسددنّ ضربة قاسية إلى الثالثة ، ولن يضيع الصاروخ الثالث أبداً .

بسم الله ... بم .. وقفز الصاروخ كأنه حبيب يهب إلى لقاء حبيب طال غيابُه .

ولعل الثالثة كانت مشغولة بأهداف جانبية ، فلم تعر الصاروخ اهتماماً ، فنالت جزاء إهمالها ، وتطايرت شظاياها في كل اتجاه ، وصفق الحاضرون وكأنهم في مِهرجان سينمائي ليس غير .

- رن جرس الهاتف : نعم نعم .
- الله يعطيكم العافية .
- الله يعافيك .
- تجهزوا للتحرك .
- إلى أين ؟.
- إلى القرية ، نلحق بالركب المهاجم . حاضر .

كان جبل الشيخ يطل علينا من عليائه هازئاً بمن حوله ، يقول :

ما تزالون أيها البشر تحبون الشر ، والخير فيكم قليل ، يقتل بعضكم بعضاً ، ويستغل القوي فيكم الضعيف ، لا تأبهون لقيم فاضلة ، تدوسون الحق ، وتخلعونه وترفعون لواء الباطل ، وتلبسون نسيجه . ما إن تنتهي حرب حتى تزيدوا من أوار غيرها . فمتى ترتاحون وتُريحون ؟.

أجبته : أيلذ لك أيها الوقور أن ترى عدوَّنا يستولي على أرضنا ، يعيث فساداً في كل شبر فيها وينتهك مقدساتها ، ينهب خيراتها ، ويذيق أهلها مرارة الذل والهوان ، ويفتك بالأعراض ، ويفعل الأفاعيل ؟!

سكتُّ – وتأملته– فلاح لي قائلاً : إنه عدو الله والإنسانية ، يسخر من الحق الضعيف ، ويطأطئ رأسه للقوة . فأعدوا له ما استطعتم منها تجدوه يذوب أمامكم كما يذوب الملح في الماء ، ثم يستسلم لكم ... فصاحب الباطل مدحور ، وإن ظهر فإلى حين . وما قلت ما قلت إلا من باب التأفف من الحروب التي حدثت على مر التاريخ في سفحي، واقتتال لم أكن أرى في كثيره إلا الظلم والظلمات ، لكنني أرتاح حين أجد الأبطال يستعيدون حقهم وينشرون نور الهداية في أرض الله .

- هيئوا أنفسكم ياشباب ، سننضم إلى قطعات اللواء المندفعة عما قريب .

... وتحرك الجميع يحملون أسلحتهم وأمتعتهم إلى السيارات بهمة عجيبة .

كان أول المنطلقين إلى سياراتهم " حمدان " .

وحمل عليّ وإبراهيم صواريخهما الستة ، واحد على الظهر ، وفي كل يد واحد ، وانطلقا إلى طرف الخندق ... كان حمدان قد أوصل السيارة إليهما ، وفتح الباب ونزل ليساعدهما في أحمالهما ، وكنت أبعد عنهم بضعة أمتار ... وجاء أمر الله وقدره الذي قهر بهما عباده .

- لم يكن قد مضى على بدء المعركة سوى نصف ساعة . وكان مرصد العدو الذي سقط بيد قواتنا الباسلة بعد ساعتين من القتال ما يزال شامخاً متكبراً على ما حوله . فلما رأى سيارة

حمدان تنطلق من مخبئها إلى حيث نقف أطلق من أحد مدافعه الثقيلة قذيفة اخترقت مقدمة السيارة وخرجت من آخرها . وكان وميضها متوهجاً.

كان حمدان قد فتح الباب ، فانحنى يعانق الأرض العناق الأخير ... وكم قال لها : سأدافع عنك أيتها الأرض الحبيبة ، يا أمي الثانية ، لا من أجل ترابك وزروعك وثمارك وخيراتك فقط . إنما لأنك كنت ملاذ الدين العظيم الحنيف ، فإليك أَرَزَ ، ومنك شع نوره إلى العالم كله ، فانساح يحرر الإنسان من ظلم الظالمين وجور الجائرين .

وارتمى " أبو حلاوة " ... رأسه على الأرض ، ويداه على الصاروخين ، وركبتاه تحت بطنه . فبدا ساجداً، ليلقى الله على صورته هذه إن كان خالص النية وأظنه كذلك ، ولا أزكي على الله أحداً ... وتعانقت روحاهما منطلقتين إلى عرش الرحمن .

وكان في عمري بقية ، فقفزت إلى الخندق ، ولحقت بي شظية أخطأتني واستقرت في جداره الترابي .... وتتابعت القذائف كمطر الشتاء الغزير .

أما أبو الأولاد " إبراهيم " فقد نفذت فيه عدة شظايا ، فانسابت الدماء منه غزيرة ، وحملناه تحت القصف إلى غرفة منزوية ، وأسعفناه إسعافات أولية لم تجْدِ معه فتيلاً ، ولم ينته القصف إلا عندما سقط المرصد اللعين بيد جنودنا المغاوير ... وحمد إبراهيم ربَّ العالمين ، ونطق بالشهادة ، وأسلم الروح إلى بارئها لتلحق بأفواج الخالدين .

000000000

كنت صباح يوم العيد شبه مضطجع أمام خيمتي أتصفح كتاباً حين نبهني الحرس :

- سيدي ، فلاح يقصدك .

ونظرت إليه ، كان يلبس سروالاً أسود ، وعلى رأسه كوفية وعقال ، يشتد نحوي .

- إني أعرفه ياسيدي ... والد " على أبي حلاوة"

ارتجف قلبي ... ونشطت أعضائي .... سيكون الموقف حرجاً للغاية ... إنه جاء يسأل عن ابنه بكل تأكيد ... ماذا أقول له يارب ؟! .... التفتُّ إلى الملازم عبد الرزاق ، ولم يكن معي في الخيمة إذ ذاك من الضباط غيره :

- يا أبا الهيثم ، دونك هذا الرجل ، اكفني مؤونته كفاك الله ما تكره .

لكن أبا الهيثم حدجني بنظرة عاتبة قائلاً :

- لست من هواة اللحظات الصعبة ، استودعك الله ياصاحبي ... وانطلق قبل وصول الرجل .
- يا أبا الهيثم .....
- إلى اللقاء يا عثمان ... إلى اللقاء .. أعانك الله .
- السلام عليكم حضرة الضابط .
- وعليكم السلام .. أهلا بالعم .
- الله يصبحكم بالخير يابن أخي .
- وتصنعت الابتسام : يا صباح الفل !! استرح هنا يا عم ... الحمد لله على سلامتك .
- هل ابني موجود ياحضرة الضابط ؟. لقد تجشمت الطريق ، وتركت العيد والأهل والمرابع لأراه ... لأطمئن عليه اسمه " علي .. علي أبو حلاوة ... آه يابني .. أنت تعرف حب الآباء للأبناء ... يا ابن أخي : طلبت أمه مني بإلحاح شديد أن أسافر إليه لأشمه .. لأقبله ، فهو ابننا الأكبر .. نشفت عيوننا حتى أصبح رجلاً .... يحفظ الله لك الأولاد .

كان الوالد يتكلم ، وقلبي يزداد وجيباً ... وبكل تأكيد ارتفعت حرارتي ، وبدأ جبيني يسبح بالعرق ... ماذا أقول له يا رب ...؟

الموت حق ... ولكن كيف السبيل إلى إفهامه ما حصل دون أن تقع هذه الكارثة عليه موقعاً أليما ؟ ... سيكون الوقع شديداً لا محالة ولكن ..

- هل تناديه يابن أخي ؟....
- هو كذلك ... يا سليم صب الشاي لعمك .. وليكن حلواً... وقلت بصوت خافت : اللهم اجعل كلامي حلواً .. ولكن أين الحلاوة في النعي ؟!!... اللهم أعني ..

وارتشف الرجل من كأسه رشفات ... وقلت له :

- كات المعركة حامية الوطيس .
- ليست لعباً يا ابن أخي ... إنه الموت أو الحياة .
- كابدنا أياماً طويلة ... تحملنا فيها المشاق ... قلة نوم ... وإرهاق ...
- في سبيل الله يا ابن أخي ، وهل ينصرنا الله إلا بالجهاد؟.
- كنت أود الشهادة يا عم .. ففيها لقاء الله ورضوانه ... هناك الجنة والنعيم الدائم .
- بارك الله فيكم ، فأنتم عدّتنا ، والله لو أن لي أولاداً شباباً لألحقتهم بعلي ، وطالبتهم أن يقاتلوا حتى الموت ...
- أوَ تلقي بفلذات أكبادك إلى القتال ؟
- ولمَ لا؟ والله وهبنا إياهم ... فإذا أخذهم في معركة مقدّسة كانوا شرفاً لنا في الدنيا وعزّاً يوم القيامة ، وشافعين بنا ، وأنا أتمنى على الله ذلك يابني .

كانت اللحظة مناسبة جداً لإفراغ ما في جعبتي ... لقد فتح لي باباً ما كنت أستطيع أن أفتحه وحدي . فلأغتنمِ الفرصة فقد جاءت .

- إذن فالشهداء كنز مدّخر لآبائهم يوم القيامة ؟... وتتمنى ذلك على الله يا عم ؟...
- نعم يا ابن أخي ...

قلت وأنا أرجو أن يقع الكلام على الأب الثاكل هيناً :

لقد عرف الله تعالى حسن نيتك يا عم ، وأنك رجل طيب ، فأعد لك ذخراً في الآخرة ... وابنك الآن يسرح في الجنة .. روحه في حواصل طير خضر تأكل من ثمار الجنة ، وتنعم بنعيمها ، ثم تأوي إلى عرش الرحمن مكرمة ...

تدفّق الدم إلى وجهه فأكسبه تورّداً شديداً ، وأصلح من جلسته .. لم يقم لأنه على ما أظن لم يستطع القيام ... وشعرت بجسمه كله ينتفض ... ولم يقدر على الكلام .. فأكملت : وكلنا يرجو الخالق سبحانه أن يرزقنا الشهادة .

فقد حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن المؤمنين حين يموتون لا يودون الرجوع إلى الدنيا إلا الشهيد لما يذوق من حلاوة الموت في سبيل الله تعالى .

عندئذٍ استطاع أن يقول شيئاً .. كان كلامه متعثراً فيه انكسار وحزن ... كان متجلداً، لكن الأسى برز واضحاً في كلامه : إنا لله ، وإنا إليه راجعون . ... ولكن .. أمتأكد يا بني مما تقول ؟ ... من كان معه حينما قتل ؟ .... لعلهم لم يتأكدوا من موته ؟...

كان الرجل يغالب هذا النبأ الفاجع ، ويبحث عن ضوء يتمسك به عله يبعث فيه الأمل بلقاء ابنه ... والتفت إليّ مستنجداً ..

قلت : أنا كنت معه ياعم ، وحملته إلى السيارة ، وأرجو أن يتقبله الله في عداد شهدائه الأبرار .

وحدّثته بما كان ملاطفاً مرة ، ومواسياً مرة أخرى ، ورافعاً من شأن ابنه ثالثة .

وعاد إلى قريته متباطئاً ، كأن تلك اللحظات زادت من عمره سنوات .

وسأل إخوة إبراهيم عنه ، ولم أكن في سريتي إذ ذاك ... وقال الملازم عبد الرزاق : إن سؤال الأخ عن أخيه ليس كسؤال الوالد عن ابنه .

أما حمدان فلم يسأل عنه أحد ، ولا أدري لماذا ؟

ومرت الأيام ، وأصبحوا قصة تُروى .

وجبة شهية

كنت أود البقاء في مرصد سرية المدفعية على " تل الضهور " فهو مكان مميز.. تتألق فيه الروح الشاعرية على الرغم من أن المكان غير شاعري ، والعمل ميداني .

فنحن في هضبة الجولان عام ثلاثة وسبعين وتسع مئة وألف للميلاد في حرب رمضان على خط المواجهة مع يهود ... بيننا وبينهم سهل طوله عشرة أميال وعرضه ستة ، تحيط به من الشرق تلول يربض عليها جيشنا ، ومن الغرب " تل وردة " و" تل شيخة " وغيرهما يحتلها يهود ، وإلى اليمين منا " جبل الشيخ " الوقور وعليه مرصد العدو الشهير الذي احتله بواسلنا في بداية المعركة .

هذا السهل وإن كثرت فيه التحصينات من الطرفين المتعاديين – وبين مشاة الجيشين كيلو متر واحد،فسلبته بعض جماله– إلا أنه يجلو البصر ببعض خضرته وألوانه الطبيعية المتناسقة وامتداده الواسع .

كنا في هدوء بُعَيْد العصر، سبقه رعود المدافع وبريق القذائف ، نراقب الموقف عن كثب ونقدم التقارير الشفوية أولاً بأول . فلا ينبغي أن تغمض عين أو تتوانى همّة ، فعمر الإنسان هنا يقاس بالدقائق والثواني ، وقد تندلع نار المعركة في أية لحظة ...

- ما رأيك ياملازم عثمان ! هل تكلف أحدهم بالمراقبة فنلعب جولتي شطرنج ؟
- لا أرغب في هذا ، لوددت أن ألعب لعبة الأحلام ، فمنذ أن تنفس الصبح ودلّت الشمس أراني على هذه الحال ، لم يذق طرفي لذة الكرى .

وما إن ذكرت النوم حتى بدأ جفناي يتثاقلان .

- عبدَ الله راقب الوضع .. سأخلد إلى النوم دقائق ... لا تقلق راحتي إلا حين يكون الهدف دسماً
- حاضر سيدي .

استلقيت على السرير الحديدي فأنّ ، لا من ثقل ، فقد كنت جِلداً على وضم ، ولكنه عاصر – على ما يبدو – إرَم ذات العماد . فهو يئن على ذكراها كلما استلقى عليه راغب في الراحة... ومن عادتي إذا ناداني أحد وأنا مستلقٍ عليه أن أهز نفسي ، فيصدر قعقعة وصلصلة تُفهم المنادي بأفصح لسان أنني لست نائماً...

- صاح الجندي : هدفٌ رائع أستحق عليه جائزة بعد المعركة .
- أو عقوبة ،إن شاء الله .
- أسرع ياسيدي .. أرجوك ...

وقمت سريعاً، فقد كنت أتوقع أن أظفر بصيد ... ولكنه صيد فاق التصور حقاً ... أمسكت المنظار جيداً وأمعنت في النظر ، فرأيت على " تل وردة " جمعاً من الضباط من بني عمومتنا! ، تلمع النجوم الكثيفة على أكتافهم .

- هم سبعة ياسيدي .
- بل ثمانية أو تسعة يا عبد الله .
- إنهما مجموعتان مع كل منهما خارطة .
- إنهم يشيرون إلى أماكننا، ثم يثبتون أشياء عليهما .
- ماذا يريدون ياسيدي؟ .
- لا شيء سوى إرسال الهدايا ... أليس كذلك ؟!
- ماذا ستفعل ياسيدي ؟

- ليسوا بأكرم منا ... هدايانا جاهزة ...

وأمسكت بخارطتي ... وبسرعة " متأنية " ثبّتُّ بقلم الرصاص مكان وقوفهم .. وأصدرت أوامري إلى مربض السرية بالاستعداد ... وهم مستعدون ، طعامهم على مدافعهم ، ونومهم قرب الذخيرة ...

حددت المسافة والزاوية ، وسألت الله تعالى أن لا يخيّبني .. وأصدرت أوامري :

- سدّدْ على المسافة كذا والزاوية كذا .
- المدفع القائد .. نار ..

وانطلقت القذيفة نحوهم .... يارب : أنت اليد التي نبطش بها ، والعين التي نرى بها ، سدِّد الرميَ وأصب الهدف.

خفق القلب سريعا بنبضات متلاحقة ، فالقذيفة بينهم ... ما عدت أرى لهم وجوداً .... الخارطتان تطيران في الهواء مِزَقا .

- سريّة .. صلية واحدة ... نار ..

ودكّ المكانَ نفسَه اثنتا عشرة قذيفة .

" وما رميتَ إذ رميت ولكن الله رمى " ...

ظللت أرقب المكان أكثر من ساعة ونصف الساعة حتى غربت الشمس دون أن أرى فيه حركة ..

وجاء المساء .. قال عبد الله :

- العشاء جاهز يا سيدي .
- أنا لست جائعاً ، فقد كانت وجبة الليلة ساخنة شهية ....

وبعد شهور سمعت من إذاعة العدو تقييماً لحرب رمضان .. كان المذيع يقول : كان لمدفعية اللواء " الثامن والستين" السوري تأثير كبير في المعركة .

ذرفت عيناي الدموع ، ورأيتني أرفع كفيّ إلى السماء :

اللهم ٬ اجعل هذا في ميزان حسناتي

المحتويات

مدفع الإفطار.. 1
مقدمة.. 2
مدفع الإفطار.. 3
رحلة صيد.. 6
عيون لا تنام ! 13
قطارٌ يتلوّى 17
كلمت جنيـاً.. 26
لحظة الانعتاق 36
مشاعل على الطريق.. 40
وجبة شهية 51